1

اللسانيات التداولية
دراسة في السياقات الأدبية والأعلامية

أ. م. د. محمد رضا مبارك
كلية الاعلام – جامعة بغداد

أ. م. د. كاظم المقدادي
كلية الاعلام – جامعة بغداد

1– مقاربة في المفاهيم :

ظهرت أهمية اللسانيات منذ القرن الماضي، وسمي هذا العصر بعصر اللغة، بسبب الثورة اللغوية في بدايات القرن العشرين وشيوع الدراسات الوصفية التزامنية، وكذلك بسبب الارتباط الذي لا انفكاك له بين اللغة والإعلام. ويمكن مقاربة اللسانيات بالقول "العلم الذي يعتبر اللغة نسقا مستقلا متطورا. واللسانيات تدرس طبيعة اللغة وأصواتها الملفوظة وأصواتها المسموعة وبناءها وقواعدها، وللغة أهمية كبيرة في فهم الثقافة، ذلك لان اي نظام لغوي ، تعبير عن إدراك جماعة من الجماعات لبيئتها ولنفسها ، لذلك لا يستطيع الباحث ان يفهم حضارة ما حق الفهم، إذا كان يجهل وسيلتها اللغوية في التعبير"(1)

المقاربة السابقة لا تلغي ما كان قارا في الذاكرة اللغوية القديمة، لكنه يضيف إليه إضافة أساسية، حين يربط اللغة بقوانين التطور، وهذا يعني ان اللغة يمكن ان تقارن بالعلوم الاجتماعية من زاوية التطور والتغير. ولهذا فأن التداولية التي هي انبثاق من اجتماعية اللغة، أصبحت من المصطلحات الملازمة للسانيات، وتقرن اللسانيات بالتداول لتأكيد دورها الاجتماعي، والمقصود تحديدا دورها في التغيير الاجتماعي، فهي "دراسة اللغة من حيث علاقتها بمستخدميها انها تعنى بالمعنى، بصناعة المعنى في التواصل وليس بالمعنى من حيث هو علاقات في المنظومات اللغوية المجردة البعيدة عن التواصل الفعلي (....) وعلى وجه

ان اللغويين العرب لم يكترثوا كثيرا للسانيات ولم يمنحوها اهتماما، واذ أهملت اللسانيات فقد اهملت الحلقات المرتبطة بها، مثل سيمياء اللغة وتداوليتها. ولعلها خسارة كبيرة حين لم نعرض منطقنا اللغوي الذي نحن بحاجة شديدة الى تجديده على الفكر العالمي.

الخصوص طورت التداولية منظورات حول اللغة مصدرها فلسفة الالسنية ومنها الأفعال الكلامية ومقتضيات الكلام والتضمين السياقي"(2).

بيد ان التمعن في المقولات السابقة، لا يمكن ان ينفي كل الصيغ واستعمال الماضي للغة, انطلاقا من القول ان تلك الاستعمالات أو الصيغ كانت قد وضعت لوصف التراكيب الجاهزة لان الاستعمال هو الحركة والديمومة والصيرورة وعدم التوقف، اي ان عدم التلاؤم بين التاريخ واللغة ليس مطلقا إذ ان السؤال: هل يمكن للحاضر ان يستوعب جزءا من الاستعمال القديم؟ اليست اللغة سابقا قد وضعت للاستعمال أيضا وليس للوصف الجاهز للنصوص؟ غير ان التداولية ترتبط ارتباطا قويا بما بعد الحداثة post modern هذا المصطلح الذي اخذ يشيع شيئا فشيئا في الأوساط الثقافية والأدبية والإعلامية, وأصبحت كالشعار, بل هي اقرب إلى ما قاله (رامبو) تلميذ الشاعر الرجيم (بودلير) في نهايات القرن التاسع عشر (لا شئ، لا شئ) انها حقا ليست العدمية، بل هي تلخيص لفلسفة جديدة بعد ان أفل عصر الحداثة بكل قفزاته العلمية ونبوءاته، وربما أيضا إشكالاته الكثيرة. ويطيب للبعض وصف المصطلح بالقول: "ان فلسفات ما بعد الحداثة ظهرت بعد ظهور وسقوط الفلسفة البنيوية، وهي تحمل رؤية فلسفية عامة، ويجب ملاحظة ان اصطلاح ما بعد الحداثة في عالم الهندسة المعمارية يختلف من بعض الوجوه عن معناه في مجال النقد الأدبي أو العلوم الاجتماعية .." (3).

وبهذا فأن المشروع الغربي مر بثلاث مراحل، مرحلة التحديث ومرحلة الحداثة، ومرحلة ما بعد الحداثة، كل مرحلة كانت أساسا لبناء المرحلة التي تليها ، فما بعد الحداثة ليس إلا انبثاقا تراكميا مما سبق, وليس طفرة وراثية كما يتوهم ذلك، على الرغم من التطور في وسائل الاتصال والثورة المعلوماتية الهائلة.. غير ان ما يربطنا ببعد الحداثة في هذا الوقت، هو رؤيتها للغة في عالم أهم صفاته انه متغير.. يرى فلاسفة ما بعد الحداثة "ان اللغة ليست أداة لمعرفة الحقيقة إنما هي أداة إنتاجها، فثمة أسبقية للغة على الواقع لذا كان النموذج المهيمن هنا هو النموذج اللغوي"(4).

ومما يدعو للتساؤل في إطار ذلك، ان بعض مقولات ما بعد الحداثة تعود من جديد إلى المرحلة السابقة, فقد كان كلود ليفي شتراوس وهو من أهم البنيويين ، قد أشار إلى ان اللسانيات سوف تصبح جسرا حقيقيا امام باقي العلوم الإنسانية بجميع فروعها "حتى أصبح من فضول القول لدى ذوي العلم ان يتحدث اليوم عن منزلة اللسانيات ووجاهة شأنها ، فلو فعل لكان شأنه لديهم شأن من ينوه بالرياضيات الحديثة بين أهل العلوم الدقيقة أو شأن من يمتدح قيمة التحاليل العضوية وكشوف الأشعة في حقل العلوم الطبية ."(5).

يشير ذلك بوضوح، إلى ان ما بعد الحداثة لما تزل تلتقي بعصر الحداثة، بكثير من الطرح العلمي والفلسفي، فمقولات كلود ليفي شتراوس، لقاء وطيد بين هذين العصرين, كما ان هناك ظلالا من الشكلانيين الروس، لما تزل تذر قرنها فيما بعد الحداثة، واللقاء المشترك بينهما : (ضياع المعنى وتشتت الدلالة) فالمعنى ليس صورة ثابتة بل هو دائما ناقص غير مكتمل وربما متشتت، وهو ما يقترب

من الرؤية الجديدة .. "مابعد الحداثة هو عالم صيرورة كاملة، كل الأمور فيه متغيرة، ولذا لا يمكن ان يوجد فيه هدف وغاية ، وقد حلت مابعد الحداثة مشكلة غياب الهدف والغاية والمعنى بقبول التبعثر وقبلت التغير الكامل والدائم"(6).

وككل مفاهيم عصرنا، فاننا لابد ان نقع في تناقض بين التداولية التي تعنى عناية خاصة بالمعنى وما بعد الحداثة, غير ان التناقض يمكن ان ينظر إليه من زاوية أخرى، فحين نقول ان التداولية مهتمة بالمعنى، فالمقصود انها تنظر إلى المعنى في عمق الرؤية الاجتماعية, اي درجة فاعلية النص في التواصل الاجتماعي، وفي هذا السياق فأن التداولية التي تقف على رأس منجزات العصر اللساني، مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم اللغة وبالجانب السيميائي منه . " فليس النص وحده هو ما يجب ان يتوقف عنده (...) بل يتجاوز ذلك إلى النظام والنسق اللذين طالما وقفت ازاءهما نظرية النص لتسهيل المجال التواصلي وهو ما يعبر عنه (ايكو) في حديثه عن التداولية بانها نظام من الإمكانات يتجاوز تكافؤ احتمال النظام في اصله ليسهل مجاله التواصلي، اي انه يستخدم عنصرا في نظام يوظفه ليرمز في مستوى اخر للدلالة غير التي كانت له في نظامه الأصلي"(7).

وإذا نقلنا ذلك خارج صيغته الرمزية الضيقة فأن التداول هو حوار بين اطراف عملية التخاطب، هو القبول والرفض في ان، اي ان الاتصال أصبح حوارا بين طرفين أو اطراف وليس نقلا لرسالة من طرف إلى طرف اخر, ويمكن القول "ان التداولية هي ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير في بعضهما، لذا الاسلوبية والتداولية تتفقان في اعتمادهما على اللغة أداة لممارسة الفعل على المتلقي، على أساس ان النص اللغوي في جملته إنما هو نص وموقف، لا يرتبط بالتعديلات التي يفرضها أشخاص المرسل والمتلقي وموقعها على معناه فحسب، بل بالتعديلات التي تحدث في سلوكهما أيضا"(8).

وانطلاقا من نسبية هذه المفاهيم، فأن المستعمل للغة، في العصر الحديث، ينظر الى هذه المفاهيم، وكأنها مقدمات فلسفية نظرية أكثر منها مناهج عمل، لا سيما وان اللغويين العرب لم يكترثوا كثيرا للسانيات ولم يمنحوها اهتماما، واذ أهملت اللسانيات فقد اهملت الحلقات المرتبطة بها، مثل سيمياء اللغة وتداوليتها. ولعلها خسارة كبيرة حين لم نعرض منطقنا اللغوي الذي نحن بحاجة شديدة الى تجديده على الفكر العالمي، إذ أصبح التفكير اللغوي الجديد منطق العالم لا منطق أوربا الغربية فقط، ومن الحيف ان نتصور ان التطور اللساني هو منطق الغرب، انه منطق الغرب والشرق أيضا ويمكن لنا ان نصف الخسارة التي جابهناها بالقول "ان تحديث الثقافة العربية لا يمكن ان يكون إلا في ظل حوار بناء، بعيدا عن كل اشكال الصراع مع النفس الذي تأخذ صورة صراع مع الغرب، اننا نتساءل هنا: هل تتعارض اللسانيات مع التراث اللغوي العربي؟ وهل الغرب واحد متوحد؟ ومن ثم نقول ان اللسانيات تستمد أهدافها وتوجهاتها من مخططاته، وهل كانت المعرفة اللسانية في مراحل تشكلها الأولى قائمة على خدمة المصالح الغربية (الاستعمارية) كما يعتقد،يشير احد الباحثين وهو علي اومليل الى ذلك

بقوله: كثيرا ما تطرح مسألة التراث طرحا يقوم على العاطفية والمغالطة"(9).

على هذا الأساس تبدو قضية الأسلوب، خارج التفكير اللساني، الجديد، لان الأسلوب يتوقف عند الجملة لكن المطلوب هو النص أو تتابع الجمل، ومع ان هذه مواضعة يقف عندها كثيرا لسانيو النص، فان التوقف عند أسلوبية الجملة لا يلغي النص، عند ذاك لا يكون النص أسلوبا بل تتابع لجمل متعددة، فأساس الفعل الكلامي هو النصوص وليس الجمل. لكن صحة الجملة أساس لصحة النص، فالنص هو تتابع لجمل صحيحة، يبقى اذن للأسلوب أهمية في هذا الإطار الحجاجي، والجديد هو ان النصوص، بمختلف أنواعها، هي في المحصلة النهائية نتيجة ترابط الجمل، فالمعنى المتكامل لا تعطية الجملة، الجملة دليل على صحة جزئية والمطلوب صحة كلية متعلقه بالنص، وغني عن القول ان المفردة يجب ان تأتي في سياق جملي صحيح عن طريق علاقاتها بالمفردات داخل الجملة، فسهولة المفردة وسلاستها هو أمر مهم في الجمل، وكذلك علاقتها بالمفردات داخل الجملة الواحدة، لكن الأكثر أهمية كيف يمكن ان نصل الى نحو النص؟ الى المعنى الكلي الذي يغير في المواقف ويغير في السلوك وهذا يعني استحضار الأخر في الثقافة الوطنية واستحضار الثقافات المتنوعة اي الأخر في الثقافات الإنسانية، إذ كلما أصبح النص تداوليا زاد قبوله لدى الأخر ، أصبح بامتياز نصا ثقافيا يحاور الأخر ولا يقصيه، ومن هنا فان تداولية النص هي قدرته على الحوار، وإظهار عدم تقاطع الثقافات بل تكاملها. فأنت تحاور الأخر اي تجلبه الى صفك وان كنتما مختلفين .. وبهذا المعنى فان (النفعية) هي حدث اجتماعي سلوكي، يشف عن طريق النصوص.

ومن هنا يمكن إيجاد فهم عربي للتداول مستقى من البعد العالمي، في ظل تراكمية معرفية، يضاف اليها تراكم في الذاكرة العربية، والعرب أكثر الأقوام اهتماما بلغتهم، ولا يضر بعد ذلك ضياع الدلالة وضعف المعاني، إذ ان المشكلة ليس في المعاني المتعددة للنصوص، بل المشكلة هي في المعنى الواحد والوحيد. لان النفع يتحقق في نوع من الدلالة تكون لصالح التغيير وتقبل به. وان عنف اللغة المرتبط بالسلوك يأتي من هذا المعنى، الذي يتربع على العرش ويزيح كل المعاني. فإذا كانت التداولية مجتمعية في أصلها, وحوارية فأن اهم نفع فيها هو تغليب الفهم (التواصلي) بين البشر، اي لا يمكن لاي تواصل إلا ان يكون حواريا، وإذا كان حواريا فهو يلغي عنف اللغة المرتبط بعنف السلوك، وفي العنف ينقطع الحوار.

الالتباس الدلالي:

قد يطلق على الالتباس الدلالي التشويش الدلالي (semantic noise)، والالتباس قريب من التشويش وكلاهما في معنى متقارب، إما الدلالة فقد شاع استعمالها كثيرا في الآونة الأخيرة "يعرف بعضهم علم الدلالة بأنه دراسة المعنى، أو العلم الذي يدرس المعنى أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى أو ذلك الذي يدرس الشروط التي يجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على

حمل المعنى"(10).

الالتباس الدلالي قديم قدم اللغة، وكانت الجهود اللغوية القديمة مشغولة طوال الزمن القديم في كيفية إيصال المعنى، لكن الأمر اخذ شكلا جديدا بعد حصول ثورتين مهمتين في عالمنا المعاصر، الأولى الثورة اللغوية في بداية القرن الماضي، والثاني الثورة الاتصالية التي رافقتها ثم تفجرت بعدها تفجرا كبيرا، ويبدو لي ان ثورة اللغة التي فجرها دوسوسير، قد مهدت لثورة الاتصال الحديثه، واذ وسم هذا العصر بعصر الاتصال فهو ايضا العصر اللغوي. وفيما يتعلق بنا نحن العرب، فأن ضخامة التراث العربي وارتباطه بقضايا ايديولوجية قومية ودينية اجل الى حد كبير الاهتمام ومن ثم الإفادة من المنجز اللساني العالمي الذي وطد أركانه منذ عقود, والرأي القوي عند بعض اللغويين العرب، هو ان ما لدينا يكفينا وان الانجاز اللغوي العربي هو اجل واسمى من ان يحاول احد المساس به أو العبث بمقولاته..

ولعل هذا المقترب، اوجد موقفا اخر مضادا، وهو قطع الصلة بين اللغة والموروث الضخم للأمة، سواء أكان لغويا أو بلاغيا، إذ ان الانشغال بهذا الموروث ابعد الصلة بين اللغة والواقع أو بين اللغة والمجتمع، ويذهب البعض من هؤلاء الى القول ان الانشغال المغامر بالواقع التاريخي للغة، ابعد الأمة عن محاورة نصوصها القديمة والجديدة على حد سواء، لان العرف اللغوي القديم، وضع لحل إشكالات ايديولوجية أكثر من حل إشكالات لغوية لها علاقة بثقافة الواقع، وهذا مصدر من مصادر الالتباس الدلالي الذي هو في الوقت نفسه التباس حضاري .

وبين رأي الثبات أو القطيعة عن التراث، تجمد الدرس اللساني العربي، إلا من محاولات خجولة مازالت تقصر عن بلوغ الهدف اللساني الاسمى، إلا وهو وضع اللغة في إطارها الاتصالي المجتمعي، ومنحها بعدها التداولي.. واذ فرضت التداولية نفسها في البحث اللساني والأدبي فلأنها تقرن اللغة بالممارسة العملية وتربط اللغة بأهدافها الحقيقية وهي خلق التواصل، وإيصال الدلالة بأكثر ما يمكن من دقة، ولاسيما بعد الثورة الاتصالية والثورة اللغوية، وقد فتحا المجال واسعا امام العولمة التي ظل العرب ينظرون اليها بشك وريبة "وتتحكم في رقاب هذا الموضوع أسئلة عديدة من قبيل: بأي وضع لغوي نستقبل ما يسمى بعصر العولمة؟ وبأي وعي لساني نلج هذا العصر؟ اهو وضع (ووعي) لغوي متأخر أم متقدم؟ وهل يسمح أو لا يسمح بالتحديث ؟ وما دور اللغة في التحديث ؟ وبأية لغة تنجز هذا التحديث، وكيف حال اللغة، التي يراد لها ان تحدثنا ؟ وهل عمل كل ذلك التراكم اللساني العربي (....) على بدء لبنات التحديث"(11).

ليس من السهل الإجابة عن هذه الأسئلة، وفي وضع عربي معقد, من الصعب فيه جمع الآراء اللسانية في نشاط جماعي تقوم به جامعات أو منظمات ثقافية، لكن الأكيد ان بعض الثوابت القديمة قد ضعفت، وهي اولى الخطوات نحو الدخول الى الانجاز اللساني والاستجابة للوضع الإنساني العالمي، فقد بدأ باحثون عرب ينظرون الى اللغة العربية نظرة لسانية لغوية، ووفق هذا فأن اللغة العربية ليست

لغة مقدسة ، فهي تخضع للدراسة على أساس التحليل النحوي والاسلوبي والدلالي. اي تقسيم النص الى وحدات لغوية ومن ثم إخضاعه للتحليل، القداسة ثبات واللغة متغيرة من عصر الى عصر ، بل من سنة الى أخرى، تدخل اللغة باستمرار كلمات واستعمالات واشتقاقات ، كما كثر فيها المعرب الحديث، الذي فرضته الاختراعات الحديثة ووسائل الاتصال، فمن غير المعقول القول بعد ذلك ان اللغة العربية لغة مقدسة إلا إذا أردنا ان نحجب عن عيوننا ما نراه من تطور لغوي في لغتنا واللغات الأخرى، كما ان نزع القداسة عن اللغة العربية يمنح المحلل اللساني القدرة على التصرف بالنص. ومع ذلك يمكن ان تكون اللغة العربية مقدسة إذا نظرنا اليها من الناحية التاريخية والحضارية.. إلا ان هذا لا علاقة له بنقد اللغة وتحليل نصوصها، فأن هذا رهن بوضعها اللساني الذي تخضع له اللغات كافة. وقد غلط (جالينوس) حين عد اللغة اليونانية اهم اللغات واحسنها، واعتبر لغات الآخرين كنقيق الضفادع.

2- تحليل اللغة الإعلامية:

اولى الإشكالات التي تواجه الباحث في لغة الاتصال، السبل الموصلة الى تحقيق الدقة المطلوبة في إيصال المعنى، ويضع بعض الدارسين مقاييس رياضية لقياس مستوى الفهم، ويكون ذلك في اطار تحليل النص، واهم ماعتمدت عليه هذه المقاييس هو طول الجملة، وهو يتناسب مع صفة قارة في البحث البلاغي القديم الا وهو الايجاز مع وضوح الدلالة، فمن تعريفات البلاغة المهمة انها الايجاز ، وقد بذل البلاغيون القدماء جهدا في تعريفه واختلفوا في تحديده "ان أول ظهور لمفهوم الايجاز كان عند أصحاب كتب الإعجاز القراني، وعند الرماني حصرا وان كان المصطلح متداولا عند النقاد والبلاغيين والنحويين لكن المفهوم لم يحدد الا عند الرماني الذي حده بأنه ، تقليل الكلام من غير اخلال المعنى"(12).

الايجاز صفة قارة في الكلام، لا سيما الكلام المكتوب، وهو يطلب حتى في الكلام الشفاهي، وفي اللغة الأدبية يعتمد على قصر الجملة، ومن البديهي ان يكون القصر مطلوبا في الجملة الإعلامية. ولعل عصرنا الحالي هو عصر الايجاز ونحت المصطلحات وتكثيف الرموز. لا سيما في الرسائل الاتصالية المختصرة والمشفرة، فضلا عن انه عصر السرعة وضيق الوقت، فما عاد المرسل معنيا بالصياغة كثيرا، بقدر عنايته بالإبلاغ، ان تغير الوسيلة وتغير نوع الرسائل، ومجافاتها للقوانين اللغوية فرض وضعا جديدا، فإذا كان قصر الجملة قد تحقق فقد لا تتحقق الميزة الاتصالية، اي ليس هناك دائما تناسب طردي بين قصر الجملة وقوة الاتصال، ان اهم ما تتركه لغة الإعلام من نتائج، ان مواضعات اللغة متغيرة وكذلك مواضعات الاتصال، فلا ثبات لقوانينهما. وان الاتجاه نحو الأقصر فالأقصر ، فلا مجال لإطالة الجمل سواء في العنوان او في المتن، إذ ان الكلام على قدر المعنى، غير ان هذا الهدف لا يمكن تحقيقه بسهولة، في اطار السرعة والعجالة التي تتسم بها عادة اللغة الإعلامية ، كما قد يضحى بكثير من المزايا بسبب قصر الجملة، فقد تكون جملة قصيرة ملتبسة دلاليا توجد في العنوان وفي متن الكتابة وجملة أكثر منها طولا، لكنها لا تثير اللبس الدلالي فضلا عن ان الاعتماد على طول الجملة وان

كان مقبولا ومعقولا فهو يضيع مهمة تتعلق بالأسلوب "فهو اختيار بين إمكانات لغوية او هو اختيار لصياغات مختلفة"، وهذا الاختيار أشار اليه بشكل واضح عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، وأقام على أساسه نظرياته في النظم، فنظم الكلام اختيار بين مفردات وكلمات متعددة تقع في اطار علاقات نظمية هي التي تصنع الاسلوب ومن تعريف عام للأسلوب وجد "ان كل نوع من أنواع الاسلوب يتميز بنموذج خاص من الانتقاءات المتواترة التي تنطوي تحت الاجزاء غير الإجبارية في اللغة"(13).

وإذا كان مهما قصر الجمل وهو مهم جدا، فان القصر وحده لا يكفي، ان قصر الجمل يجب الا يضيع الميزة الاتصالية سواء في اللغة الأدبية او اللغة الإعلامية، فقد لاحظ جاكبسون ان اي اتصال لغوي فيه تأثر بين عوامل متعددة هي بمثابة شروط أساسية للاختيار الاسلوبي، اي ان قصر الجملة هو واحد من هذه الاختيارات وليس جميعها وهذا يعني فحصا للجمل قبل إخضاعها لاي من المقاييس الإحصائية المعتمدة لقياس الكفاءة الاتصالية.

الاختيار الاسلوبي والاختيار النحوي:

لابد من تأكيد حقيقة من حقائق اللغة الإعلامية واللغة الأدبية، وهي ان هناك علاقة وطيدة لهذه اللغة بالأسلوب، واهم صفة في الاسلوب انه قائم على الاختيار، ومادامت هي كذلك كما نرى، فلا قواعد ذهبية للصياغة الإعلامية، ولا توجد كلمات رابحة وكلمات خاسرة، الا حين تختار الكلمات بقصدية سياسية او دعائية كالاختيار بين قتل واستشهد او الاختيار بين مات ورحل وانتقل، وإلا فهناك مقاربة عملية بين اللغة الإعلامية واللغة الأدبية، وهذه المقاربة مطلوبة لتوسيع دائرة اللغة والتعبير، وكذلك ردم الهوة الواسعة بين لغة الأدب ولغة الصحافة، إذ أصبح قارا في البحث الأدبي ان المفردة وحدها لا تعني شيئا مهما، والذي يمنحها قيمتها هو السياق، او بالأحرى السياق النظمي، فهي تأتلف مع كلمات أخرى، تنشأ في ضوئها علاقة وثيقة قائمة على الانسجام وليس التنافر، وهو الذي يحقق للغة الأدبية أهميتها، وفي اطار الصياغة الإعلامية اعتني بالمفردة، وكأن الميزة الاتصالية كامنة فيها، غير ان المهم هو الصياغة ، الجملة، او تتابع الجمل وليس المفردة، على الرغم من ان بعض اللغويين يعنون بالمفردة، بجمالها وموسيقاها، ولا يمكن إنكار الصفات التي يمكن ان تلحق المفردة، غير ان السياق هو الذي يمنح بعض المفردات جمالها، اي ان جمال السياق المرتبط بالمعنى هو الذي يعطي اللغة الإعلامية تميزها.. لذا فلا قواعد لاختيار المفردة ولا قواعد ايضا ثابتة لصياغة الجملة، لذا يمكن القول ان هناك مواضعات للصياغة و مواضعات للمفردة، وليس قاعدة، والكلمات الرابحة، تعطي الدارس انطباعا بقوة القاعدة، ولنتذكر اننا في حضرة الاسلوب، والأسلوب ينفر من كل قاعدة بل هو ثورة على القواعد، ولذا فأن الاختيار النحوي مختلف تماما عن الاختيار الاسلوبي، فالأول يرتبط بالقاعدة والثاني لا علاقة له بها ، اي التقنين الكتابي، فكل تفنين للغة الإعلام يخرج عن الإطار الاسلوبي، وهو جزء من الاختيار النحوي، فأنت مخير بأن تعبر بالمصدر او بالفعل المضارع، او حتى بشبه الجملة في العناوين

الخاصة، لكنك لست مخيرا في الانتقاء بين جمل النفي كيف تشاء، لان لكل جملة معنى مختلف عن الجملة الأخرى.. مثل النفي بلا او بلما او بلم او ليس.. فكل جملة مع هذه الأدوات معنى اي التركيب النحوي يختلف بالأداة وعلى أساسه يختلف المعنى، فاستبدال الأداة استبدال نحوي لا اسلوبي، "لم ينضج العنب، العنب لما ينضج، او لا ينضج العنب".. وكذلك فأن التقديم والتأخير والحذف في الجمل هو ميزات نحوية ، وقد عرفها النحو وانشغلت بها البلاغة القديمة، وبعضها وضعت مقياسا للغة القران الكريم ، والكثير من اللغويين يعدها خيارات اسلوبية.

لعل من الطريف الحديث عن باب من أبواب البلاغة، يدرس في علم المعاني وهو في باب الحصر والقصر، فتقول إنما نحن أصدقاء ولا تقول ما نحن الا أصدقاء، فالتعبير الأول يختلف عن الثاني، لاختلاف المعنى في الاثنين، وان دخل الاثنان في باب الحصر والقصر او باب التوكيد، وشبيه بذلك القول ، ما العراقيون الا مسالمون..

ففي هذا التعبير اختلاف نحوي لا اسلوبي ، فظاهر الجملة انك قصرت الموصوف على الصفة (العراقيون) الصفة (مسالمون)، وهي جملة، يظن قائلها انها تحسن الى العراقيين، وقد عبر عن ذلك بطريقة التوكيد، المعتمدة على النفي ب (ما) والإثبات ب (الا) غير ان هذا التعبير فارقته الدقة، بل ان طريقة الصياغة أساءت الى المعنى المقصود، إذ ان الصياغة الصحيحة هي (بانما) حصرا، فتقول (إنما العراقيون مسالمون)، ففي هذه الصياغة تثبت ان المخاطِب والمخاطَب متفقان على انهم مسالمون، و حين تقول (ما العراقيون إلا مسالمون) فقد أظهرت الشك، اي ان المخاطب يشك في انهم مسالمون، ومن ثم فأن التعبير الأول قد يحمل معنى الإدانة للعراقيين اي يدخل في معنى غير المعنى المقصود ، كذلك حين تقول، إنما هو أبوك، فهذا التعبير سليم في إيصال المعنى، لكنك حين تقول ما هو إلا أبوك، لقد حملت الجملة الثانية معنى التنكر لأبيه، او هو لا يحسن معاملته. فعلى الرغم من وقوع الاثنين في باب الحصر والقصر، لكن كلا الاستعمالين يؤديان الى معنى مختلف والاختلاف قد يكون أساسيا، يقلب المعنى من الشئ الى نقيضه، فعلى هذا الأساس فأن الاختيار نحوي .

ويلاحظ في هذا السياق ان الاختيار النحوي ملزم، اما الاختيار الاسلوبي غير ملزم، وهو اختيار من إمكانات متعددة، ولعلنا نقف عند المعنى الاتي لجلاء القصد "يبدو ان الاختيار الاسلوبي هو اختيار بين وحدات تكاد تتساوى دلاليا ، اما غير الاسلوبي فقد يكون انتقاء بين دلالات متعددة"(14).

وعلى الرغم من استعمال قد مع الفعل المضارع، الذي يقلل من حماسة الجملة السابقة ، غير اننا يمكن ان نضع المقولتين الاثنتين وتتبناهما بكل ثقة وهما:

- إلزامي في النحو.
- اختياري في الاسلوب.

ففي اطار القصة الخبرية، او التقرير الصحفي، او السرد الروائي، يمكن للجمل الاتية ان

تصنف تصنيفا اسلوبيا..

– مات اللص القاتل بعد صراع مع الشرطة.

– فطس اللص القاتل صباح هذا اليوم.

– انتقل اللص الملعون الى جوار ربه.

ثلاثة أفعال استعملت في الجمل الثلاث، هي مات، فطس، انتقل، وقد يبدو ان الاختلاف بين الأفعال نحوي لاختلاف الجذر اللغوي لكل فعل، لكن كما ذكرنا المهم هو السياق وكيف استعمل فيه الفعل، فالاختيار ليس نحويا، بل هو اختيار اسلوبي، اي استبدال صياغة بصياغة أخرى، وليس معنى بمعنى.. ويلاحظ ان الجملة الثالثة، ذات صياغة روائية أكثر منها صحفية، ولطالما تداخل السرد الروائي مع لغة الإعلام، ويمكن ان تكون الجملة الثالثة تدخل في اطار صحافة الإثارة ، ومع ذلك لا تخرج عن اللغة الإعلامية ..

وننظر الى هذه الصياغات:

– حملها معه على حصان ابيض.

– سارا يحدو بهما فرس نشيط.

– امتطت معه الحصان كغزال شارد .

استعملت الأفعال حمل وسار وركب، وكلها أفعال مختلفة في المعجم، لكن دلالتها توحدت في الاسلوب، فما عادت مختلفة بل متفقة، اي انها وقعت في حقل اسلوبي واحد، ويمكن القول انها وقعت في حقل دلالي واحد، في مقاربة خاصة بين الدلالة والأسلوب، واذ عرفنا الدلالة سابقا بانها المعنى، فان هذا لا يعني تطابقا من نوع مابين المعنى والدلالة، فالمعنى هو المقصود بعينه، والدلالة هي الأوسع من المعنى، نأخذ بالابعاد التي تحف بالنص، او الإبعاد المحايثة للنصوص، والتي تثبتها الأساليب، اي ان هناك علاقة وثقى بين الاسلوب والدلالة، وعلى هذا فإن الاختيار الاسلوبي هو اختيار دلالي ايضا، لان الدلالة لا تنعش المعنى فقط بل ظلال المعنى ايضا..

الصياغات السابقة صياغات اسلوبية، قد يقتضيها السرد الروائي ويلاحظ ان لكل جملة أسلوبا، والجمل متماسكة نحويا والاختلاف في ما تثبته الجمل من بعد تداولي (نفعي) يذهب اليه النص ويطلب تركيزه في ذاكرة المتلقي. فالاختيار لم يقع فقط في مادة الفعل بل ايضا في العلاقات المجاورة، وإذا كانت العلاقات في الاختيار النحوي علاقات مجاورة ايضا ، فأن العلاقات في اختيار الاسلوب نشيطة نازعة نحو الحركة وليس الثبات...

الى جانب الأفعال التي توحدت اسلوبيا ودلاليا، فقد توحدت الصفات ايضا في: ابيض ونشيط وشارد، وكلها تنتمي الى حقول دلالية مختلفة، لكنها وقعت بعد الصياغة في حقل دلالي واحد، وهذا يعني ان السياق المرتبط بالجملة هو الأمر الحاسم، وهو الذي يعطي الحرية والحركة للنص، ويبعد

الجمود النحوي عن اللغة في أنواعها وابعادها.

3- المنهج الوظيفي في اطار النص:

نشير في هذا الإطار الى ان الوظيفة لها معان متعددة، يقترب أهمها من علاقة اللغة بالمجتمع، ويرمز بعضها الاخر الى بـــراجماتية النص، غير ان الشـــكلانيين الروس، أطلقـــوا عليها الأســـاليب الوظيفية ووجدوا "ان علماء الاسلوب في مدرسة (براغ) هم أول من طور علم الأساليب الوظيفية، وهم أول من وقف امام الوظائف الاتية واكدها:

- الوظيفة الاتصالية للغة.
- الاستعمال الهادف والمستحسن اجتماعيا في الميادين المختلفة للفاعلية البشرية" (15).

واذ تلتقي الوظيفتان وتساند احداهما الأخرى فأن اللســـانيين وضعوا جل اهتمامهم في علاقـــة اللغة بالمجتمع، وتحليلها على مستوى النص، فيما يطلق عليه لســـانيات النص وهذا هو الذي يعزز هذه الوظيفة فالمهم ليس الجملة بل الجمل المتتابعة، وان العنصر اللغوي ينبغي توظيفه في السياق التتابعي على مستوى النص، ولهذا يمكن الاقـــتراب في دراســـته من المنهج الوظيفي الذي يرى "ان الوظيفة لا تقوم على اساس الصيغ ولا تقتصر على الاهتمام بالعلائق التي تبنى على العناصر الالسنية فحسب، بل تتعداها الى بيان وظيفتها في عملية التواصل"(16). وفي هذا التحديد يمكن وضع اللغة الإعلامية واللغة الأدبية في مسار واحد، وهو علاقـــتهما بـــالمخاطب الفردي والجمعي "فاللغة نظام وظيفي، يرمي الى تمكين الإنسان من التعبير والتواصل، فكل ما يضطلع بدور في التواصل، ينتمي الى اللغة، وكل ما ليس له دور فهو خارج عنها. اي ان العناصر اللغوية التي تحـــمل شحـــنة إعلامية هي وحـــدها لها وظيفة، فدعت الى ضرورة دراسة الوظيفة الحقيقية للغه اي الاتصال والإبـــلاغ، كيف يتم ولمن يوجه وفي أية مناسبة"(17).

ان بناء جمل صحيحة هو تحقيق لأسلوبية الجملة غير ان المهم هو الحصول على انسجام النص في إطار وحدة النص، لهذا اعتنت لسانيات النص منذ عقود بتتابع الجمل في نص معين، وهذا التتابـــع يحقق معاني ما ترمز اليه الكلمات "فالنص وليس الجملة هو الوحـــدة العليا الأكثر استقـــلالا، ورأت ان مهمتها الأولى هي التنظيم للمستويات المتجاوزة لحدود الجملة وتحديد القيود الخاصة التي تشـــكل من سلسلة جمل نصا، فضلا عن تحليل الوسائل اللغوية التي تخلق تماسك النص"(18).

ولكن هناك مواضعات تترك أثرا ما على النظام الوظيفي للغة ، ويمكن تلمسها في الصمت الذي تدفع اليه الشاشات المتعددة، التي تشـــيع الفة خاصة وتنقـــل الفرد من اجتماعيته المعهودة الى فردانية خاصة به، وبما ان اللغة اجتماعية بالطبع فأن العزلة هي الصمت وان استعملت اللغة وقد تحقق ما يشبه ذلك "فلقد تشظت الصور مع تشظي الشاشات هندسيا وتعددها للفرد الواحـــد: شاشـــة للتلفزيون وثانية للكومبيوتر وثالثة للكاميرات الخفية والهاتف الخلوي ...."(19). وقد تشظت معها العائلة "فان الصورة

العامة التي تمثل المجتمع المعاصر تحمل تشظيات الفرد والعائلة على مستوى مصادرها الثقافية والاقتصادية وممارستها ولغاتها، من هذه المساحة العائلية المتشظية بالذات، يمارس الإعلام المتطور سلطات الشاشة، فيزرع الصمت ويعزل الناس محققا بالاتصال أجيالا غير لغوية، متعلقة بالصورة سلطة السلطات"(20).

لابد من دراسة الوظيفة الاتصالية للغة من هذا الواقع الجديد الذي لم يكن يطرأ على ذهن دوسوسير او تشومسكي او بلومفيلد او دعاة التواصل الاجتماعي عبر اللغات، كما ان الخيال النشيط لم يستطع ان يتنبأ بحصول ذلك في طرفة عين، ولم تعد الوسائل اللغوية المستعملة ذات جدوى كبيرة بعد كل هذا التطور الهائل في الوسائل الذي دخل بنية المجتمعات، في كل طرف من اطراف العالم والصعوبة الكامنة في كل ذلك، كيف يمكن المحافظه على الجانب الاتصالي للغة وفي اي إطار إذ أصبح المتحول لا يجاري الساكن، واللغة ظاهرة اجتماعية فلابد من إيجاد وسائل لإحداث التوازن بين الثابت والمتحول.

ان الجانب النفعي الاجتماعي الاني هو الذي يطغى على التداولية ، سواء في لغة الصحافة أم في اللغة المستعملة في الوسائل الأخرى، وهذا في الأخير قد يفقد اللغة جانبها الشكلي، وهو جانب مهم في إيصال الدلالة، والجانب الشكلي يهيئ الذهن لمقاربة المعنى، او الوصول إليه إذ ان جوانب الحذف والإيجاز وبناء المفردة والجملة هي جوانب شكلية تتصل اتصالا وثيقا بالمعنى الذي يراد إيصاله، وفي كثير من الأحيان يتغير شكل الجملة للحصول على رسوخ أكثر في ذاكرة المتلقي.

من الحلول المطروحة في مواجهة المفصل الجديد ، العودة الى النص، وقد ركز النحو التوليدي والتحويلي على الجملة واقتصر في تحليلاته عليها بوصفها اعلى وحدة تحويل لغوية "ولكونه هو ذاته نموذجا متخصصا بوصف الكفاية اللغوية الباطنة للمتكلم وللمستمع المثالي، نموذجا يصف قدرة المتكلم على انتاج جمل كثيرة غير محدودة في لغته وقدرته على فهمها، ولهذا تجلى موقف هذا الاتجاه البنيوي في ان اللغة هي إجمالي الجمل كلها"(21).

لقد اعتنت لسانيات النص منذ عقود بالوقوف على النص لا سيما تتابع الجمل، وهذا التتابع يحقق للغة أقصى انتظام بين الجمل والكلمات وما ترمز إليه عن طريق تتابع الجمل كما يمكن ان يحقق ميزة الاختصار والإيجاز المطلوبة في أساليب الكلام المكتوب والشفاهي على حد سواء، ولسانيات النص رأت ان مهمتها الأولى "التحليل المنظم للمستويات المتجاوزة لحدود الجملة، وتحليل القيود الخاصة التي تشكل من سلسلة الجمل نصا ، فضلا عن تحليل الوسائل اللغوية التي تؤثر في التماسك او تخلق تماسك النص"(22).

ان تحقيق مثل هذا التماسك في إطار تتابع الجمل يطرح قضايا في إطار التضمين ، يمكن الإشارة اليها كما يأتي:

1- التضمين السياقي والمعجمي.
2- التضمين الخيالي.
3- تضمين الضمائر.
4- الترابط القريني.
5- التضمين الثقافي والاجتماعي (مجتمع الاتصال).
6- التفاعل (اطراف الاتصال).
7- المقام الكلامي (ظرف الاتصال).

وسنتناول ثلاثة تضمينات مهمة هي :

التضمين السياقي: في هذا النوع من تتابع الجمل، يمكن ان تعوض جملة عن أخرى، هذا النوع من الجمل يحقق الإيجاز الذي يطلب عادة في اللغة الأدبية واللغة الإعلامية، مثل قولنا (السياب شاعر كبير، قراؤه كثيرون). الجملة الثانية يمكن ان تتضمن الجملة الأولى، لان الشاعر الكبير لابد ان يكون له قراء اي ان الجملة الثانية جزء من الجملة الأولى وهي متضمنة فيها، وبالإمكان حذف الجملة الثانية بلا خلل في المعنى، ولا يمكن ان نضع الواو العاطفة بين الجملتين فلا نقول: السياب شاعر كبير وقراؤه كثيرون، لان الواو العاطفة التي تأتي في الجمل لمطلق العطف جعلت كل جملة ذات معنى مستقل، فلا يصح اذن وضع الواو في مثل هذه الجملة فأذا وضعت تكون الجملتان ضعيفتين اتصاليا لأنهما تفتقدان الى تماسك النص الذي يؤدي الى ضعف المعنى وتقول: (بللني المطر، جرى الماء على جسدي). في هاتين الجملتين يكون التركيب اقرب الى الترابط المعجمي ، لان كلمة مطر وماء يرجعان الى مصدر واحد ، وبهذا الترابط يحافظ على تماسك النص كما في المثال الاتي: سمعنا الصهيل، الحصان في الغابة يلاحظ الترابط المعجمي بين الصهيل والحصان، وفي الأمثلة السابقة أطلقنا عليها تارة الترابط المعجمي او التضمين السياقي، وفي كلا المصطلحين فأن الجملة الثانية بيان للجملة الأولى، عند ذلك لا تكون الجملتان متغايرتين بل هما في حكم الجملة الواحدة ، ويمكن الاستغناء عن الجملة الثانية ولكن وفي إطار جملتين مستقلتين يقال (الأساتذة مشغولون بالتدريس والطلاب بالمطالعة) فلابد من وجود الواو العاطفة بينهما، فليس فيهما تضمين سياقي او ترابط معجمي .

التضمين الخيالي او التضمين بالحذف : هو ظاهرة في تتابع الجمل المجاورة في النصوص. ان تماسك الجمل قد يخل به أحيانا التوضيح الزائد للمعنى، فهو فضلا عن انه يخل بطول الجملة يقلل من الميزة التفاعلية للنص، فالنص هو تفاعل بين منتج الخطاب والفاهم ، وفي الأخير فأن الفاهم هو الذي يصنع المعنى، وقد يكون الخيال سببا مهما في إيصال المعنى ، ففي لغة الصحافة يمكن إيراد الجملة الاتية: (قدمنا جهدا مهما في تشكيل الحكومة، ولنا مطالب) وردت هاتان الجملتان في تصريح صحفي لأحد أعضاء مجلس النواب العراقي من التحالف الكردستاني، ويلاحظ انه أورد الجملة في صيغة

النكرة في قوله ولنا مطالب، لكنه لم يحدد طبيعة هذه المطالب او صفتها، إذ يمكن ان يقــول في الجملة الثانية، ولنا مطالب كثيرة، لكنه لم يذكر الصفة ، فهو يريد ان يدفع الفاهم الى تشكيل المعنى عبر حذف الصفة ولو ذكر الصفة وقال لنا مطالب كثيرة لاخل بــمعنى الجملة، فالوضوح الزائد يخل بــالمعنى ، وحين ذكر كلمة (مطالب) وجعلها في حــالة النكرة لان النكرة تدل على العموم وهي تدعو الى التخييل عبر عدم التحديد، إذ على المخاطب ان يشكل الكلمة المحذوفة، فأذا شــكلها في ذاكرته فأن النص يكون ذا اكتمال دلالي ، فقد وجد في القران الكريم وفي اللغة الأدبية مثل هذا الاستعمال حين طالب السحــرة فرعون وقالوا له (ان لنا لاجرا) في محاولة لدفع المخاطب الى تصور الكلمة المحذوفة، وهي لابــد ان تكون كلمة في سياق محدد معروف تتناسب مع المهمة التي قاموا بها. ومن الخطأ الظن ان لغة الإعلام تخلو تماما من التخييل، لكن مستوى التخييل في اللغة الأدبية مختلف تماما عن اللغة الإعلامية. تضمين الضمير : تصنف الضمائر عند النحاة بانها أكثر المعارف وضوحا، لانها لصيقة بالإنســان وتدل على معناه، "فأنت تقول انا فلا يلتبس المعنى وتقول انت فيحدد المقام المقصود بالخطاب، وتقول هم مسبوقة باسم ظاهر، فتعبر عن المقصود مع الاختصار والوفاء، ويخالفهم بعض اللغويين فيما يذهبــون إليه من قيمة التعريف في الضمير، ويرون ان الضمير أحيانا يستعمل للرغبة في التعمية والايهام، فكيف يكون مع ذلك اعرف المعارف وأوضحها"(23).

الضمائر هي مجال التميز بين اللغة الأدبية واللغة الإعلامية ، فالأدبية تقــوم على تشــخيص الأشياء والاعتداد بالذات، لاسيما في الشعر الغنائي والوجداني، وقد استعمل الشــعراء من المتصوفة الضمائر بطريقة ملفته، وبنوا قصائدهم على الضمائر، الشاعر الصوفي الحسين بن منصور الحــلاج كان أكثر قدرة ووفاءا باستعمال الضمائر، لان الضمير يعبر بشكل واضح عن الانا الشخصي في مقابل (الانت) الاخر، وعند الصوفيين يتحــد الاثنان كما في قــول الحــلاج (انا من اهوى ومن اهوى انا).. الشعر والوجداني يكنى غالبا بالضمير لإخفاء الاسم، ومع ذلك فان الضمير لا يكون تعمية وانغلاقا، بل العكس إذا دخل نظام الجملة في سياقات دقيقة فهو أكثر العناصر دلالة، ومن هنا يمكن نقل الضمير من نظام لغوي معين الى نظام اخر، في الإطار التداولي، اي ان العنصر الذي ينقل من سياق معين ثابت فيه الى سياق اخر يكون في هذه الحالة عنصرا جديدا متحركا في نص جديد يحقق للنص نفعيته المطلوبة، وهي صناعة الفهم .. في اللغة الإعلامية لا يعتنى بــضمير المخاطب وضمير المتكلم ، ولاســيما في عنوانات الأخبار، إلا إذا ورد في صورة تتابع الجمل وهي قليلة في العنوانات، "لكن الضمير يظهر في بعض المستويات الكتابية او التحريرية او البيانية الصحفية، مثل المستوى الصحفي المتأدب، ويســميه بعض علماء اللغة (الاسلوب العلمي المتأدب)، إذ يضفي على أسلوب المحرر سمة من الأدب، او قدرا من الذوق الأدبي، لا يزيد عن الحد المعقول، كما يبدو ذلك عن طريق طابع وأساليب بــعض العنوانات والمقدمات والنهايات للأحاديث والتقارير المصورة والتحقيقات الصحفية عامة، خاصة في المجلات، كما نشاهده ايضا في تحــرير مقــالات الأعمدة واليوميات الصحــفية خاصة ما يتصل منه بــالجانب

الذاتي"(24).

في الضمائر يتقدم الحوار أشواطا وقد يطيب لبعض الكتاب ان يغير اسلوبه معتمدا على الضمير بدلا من ان يقول: أحب إياك يغير الجملة عن طريق التقديم فيقول: إياك أحب، حين ذلك يقال قدم الضمير لأهميته في نفسه، ويقال ايضا ان التقديم ميزة اسلوبية وهي مجال مشترك بين لغة الأدب والصحافة غير ان الأمر يتعدى ذلك كثيرا الى دلالة النص لاننا في إطار النص لا في إطار الجملة، إذ غادرنا الاسلوب مع مغادرتنا للجملة ولا بد من التمييز بين دلالة النص والمفاهيم القريبة منه، مثل نحو النص والنحو الدلالي الذي يعنى بمسائل تكوين النص اما دلالة النص "فلا تهتم بالعلاقات التي يمكن تحققها لغويا في نصوص تحققت او بدأ تحققها (...) ففهم النص هو في الحقيقة مفهوم علوي يتضمن مكونات خاصة ببراجماتية النص وكذلك عوامل غير لغوية كثيرة"(25).

لهذا فأن جهدنا في هذا المقترب هو جلاء العلاقات الدلالية للنصوص ،ففي بنية النص (مؤسسة النص) توجد علاقات ظاهرة وعلاقات كامنة، وتدخل في إطار العلاقات الظاهرة مجال الإحالة ومجال العمل ومجال الروابط.. ويمكن ان تقتصر أوجه التصنيف الاسمي التي ذكرها (زتسيسلاف واورزنياك) على أوجه التصنيف الاسمي البديلة، اشكال إكمال عن طريق الضمائر والظروف الضميرية، وتكوينات بديلة اي اشكال المادة عن طريق مكثفات المعنى وموسعات المعنى وكذلك عن طريق صيغ بديلة مختلفة.(26)

ومن اجل توضيح أهمية عنصر لغوي وهو الضمير في تكوين شبكة من العلاقات داخل النص وتحقيق دلالية النص، نورد الأمثلة الآتية: حوارية مع بعض التعديل من اورزنياك، ونصا من شعر عربي يعتمد الضمير ونورد نصا صحفيا، يؤدي فيه الضمير مع عناصر أخرى دورا في هذه الدلالية.

المثال الأول: حوار

"في منتصف الشارع يوجد كلب، صاحب العربة الذي يسحب عربة محملة بالحيوانات، قال غاضبا: تنح، انت أيها المحشور في النزهات، انت، يا اجبن من قطة، انت ياهو هو يا متسكع.. فتح الكلب (عينا) و (قال): ماذا دهاك؟ كيف تتحدث هكذا مع دافع للضرائب؟"(27)

المثال الثاني: نص شعري

(لست) أهواك للجمال وان كان
جميلا ذاك المحيا العفيف
(لست) أهواك للدلال وان كان
ظريفا يصبو إليه الظريف
(لست) أهواك للرشاقة والرقة
والانس وهي شتى صنوف

(انا) أهواك (انت) (انت) فلا
شئ سوى (انت) بالفؤاد يطوف(28)

المثال الثالث: نص صحفي

نسمع دائما من يقول قرأت كتابا فغير حياتي.. قال هذا الكاتب البرازيلي (كويلو) فرددها بعده شبان بأماكن مختلفة من العالم، قابلت يوما شابا قال لي انه قرأ (الخيمائي) فأكتشف ان (الكنز) الذي يبحث عنه في الخارج موجود في داخله. ولم اقل للشاب ان هذا الكتاب مسروق من كتاب اخر يحلم فيه تاجر مصري بكنز في مدينة إيرانية فيقابل قاضيا إيرانيا يقول له انه هو ايضا، حلم بكنز موجود تحت شجرة في المنزل الفلاني في الشارع الفلاني. وكان المنزل لدهشة التاجر المصري، منزله الذي غادره بحثا عن كنز في طهران(29).

في النص الأخير علاقات دلالية جلية تتضمن معلومات مباشرة الى جانب علاقات دلالية كامنة (تفهم منها بصفتها معلومات غير مباشرة لمتلقي النص) فالنص السابق يشكل عن طريق الفعل المضارع المرتبط بالضمير الجمعي (نسمع) ثم الضمير الاخر (قال لي) (لم اقل)، فالعلاقات الدلالية شكلها الضمير الذي ربما يحدث في كل كلام، لان الضمائر تشكل بنية الجمل، ويظهر الاسم الواضح في إطار العلاقات الظاهرة ، كويلو الكاتب ، والكتاب الذي قرأه كويلو ، ثم الكنز وقد قرئت موضوعاتها بوضع في تكافؤات منطقية دلالية، والأدوات التي وقعت على الدلالات الظاهرة، فتحت الطريق نحو الدلالات الكامنة، وأهمها، البحث داخل النفس للعثور على الكنز وليس الخارج، وليس هذا تأويلا، لان التأويل معاكس للدلالة المعينة بإيجاد دلالة معاكسة، ولكن هذا يعني ان الدلالتين، تتعاونان في إظهار المعنى، ويلاحظ دهشة التاجر المصري، حين وجد ان بيته هو موئل الكنز ، والنص يقوم على إحالات (تصويرية)، وتخييلية على الرغم من لغته الواقعية، "فالنصوص التصويرية تستخدم ما يسمى أزمنة تابعة، للمضي والحال على العكس من ذلك تستعمل النصوص التخيلية أزمنة تابعة للحظة التكلم (....) وبعبارة أخرى يفترض ان الأحوال الممثلة للنصوص التصويرية قد حدثت او هي حادثة، وتتخيل الأحوال الممثلة في النصوص التخيلية انها لم تحدث، او حادثة مع متغيرات متبادلة للأدوار"(30).

إذا وضعنا هذا المعيار وهو معيار (هارفج)(31) فأن النص السابق فيه إمكانات تخيلية، اي ان الحكاية في أصلها لم تحدث، وان زمنها هو زمن المضي، في الأخير الفعل (كان) يلخص القصة، لكن الفعل المضارع هو المتصدر للنص. وزمن الفعل المضارع في النص هو الزمن الماضي، لان الفعل المضارع على ما هو معروف في اسلوبية الفعل المضارع، يختصر الأزمان في زمن واحد.

يمكن التعامل مع النصوص الثلاثة انطلاقا من مقولتين أساسيتين تتداخل أحداهما بالأخرى: الأولى لسانيات النص، والثانية دلاليات النص، ويلاحظ اننا لم نلجأ الى اي من المقاييس الاسلوبية التي تعتمد لقياس الجملة ولا لأية معادلة رياضية، بل نعتمد الملاحظة العلمية، القائمة على تحليل الأداة وهو

هنا (الضمير) وعلاقاته، وأهمها علاقات الاستبدال .

في النص الأول يظهر التعيين الأول للاسم، وهو الكلب، ثم يستبدل بـــه انت، المســـتخدم ثلاث مرات استخداما اشاريا ويحمل تعبيرات لغوية ذات شحنات عاطفية (المحشور في الطرقات) (يا اجبن من قطة) (يا متسكع)، يتضافر الاســـم وضميره، مع هذه الصفات التي وردت في صيغة المنادى. وهي تعبيرات معادة، اي ان العبارات التي جاءت غالبـــا في صيغة المنادى، تحـــيل الى المخاطب، وتصنع الحوارية بين الاثنين طريقا من طرق التواصل، حين يقول له ماذا دهاك؟ كيف تتحـــدث هكذا مع (دافع للضرائب).. والإحالة على النكرة في الأخير، تدل على عموم الدافعين للضرائب، لهذا فهو يتوحـــد مع الجميع في صفة الدفع ولو قال مع (الدافع) للضرائب، لاختلف العنصر البـــنائي في النص، ولتعين ان منحى النص قد اتجه اتجاها اخر، بـــينما النكرة، جعلته يتســـاوى مع صاحـــب العربـــة، اي كلنا ندفع الضرائب اي كلنا متساوون. وهو تكوين بديل اقـــتضاه النص لإيصال الفهم، ويطلق عليه اورزينياك، التكافؤ غير المتجانس الوظيفي بين السابـــق ذكره والصيغة البـــديلة "الكلب ودافع الضرائب" "وينشـــأ التكافؤ الوظيفي في إطار النص المقدم عن طريق متلقي النص على اساس معرفته الموسوعية"(32).

وفي النص الثاني: وهو نص شعري يختفي فيه الحوار، لاسيما إذا كان شـــعرا غنائيا فإذا كان التعيين موجودا وهو تحديد الضمير (انت) فأن إعادة التعيين والتعيين البديل مستبعدان لاسبـــاب جلية. التكوينات (البديلة المجازية لا ترد إلا في نصوص شعرية فقط) والبديل عن الاســـم في القـــصيدة هو الضمير (انت)، الذي ظهر في النص لتكوين بديل مكرر في عدة اســـطر، اما (لســـت أهواك) الجملة المعادة لا تأتي إلا بصفتها رابطا نصيا، ويلاحـــظ في الروابـــط النصية الإعادة. غير ان الضمائر التي شـــكلت وحـــدة النص، توزعت على عناصر مهمة، أعطت النص نوعا ما من أنواع التماســـك، وكل العناصر الضميرية جاءت بـــين ضمير المخاطب المنفصل وضمير المخاطب المتصل، وهذا يعني ان النص يحقق درجة عميقة من الفهم، تتناســـب مع صيغ الضمير المكرر وعبـــارات المديح. ويمكن ان تكون عبارات مثل: الجمال، الدلال، الرشاقة، الأسى، هي تكوينات بديلة لإحســـاس ذاتي. وتقـــدم هذه التكوينات على أساس انها بديلة ضمنية، وهي في الأخير استبدالات ذات معنى واحد يقتضيها الســـياق المجازي وهي تقع في (علاقات الترادف وخاضعة للمعايير الواقعة في الاستعمال اللغوي.

وفي عودة الى النص الصحفي نقول: لقد اخترنا نصا صحفيا عشوائيا من مادة صحفية منشورة في إحدى المجلات، ووجدنا ان هناك فرقا واضحا بين النصين الأول والثاني، وبين النص الصحـــفي، فهل يخضع هذا النص للتحليل الدلالي، من الصعب إيجاد توافق شكلي بين جمل النص الصحـــفي التي وصفت في هذا النص وفي غيره، ويبدو لي ان الصعوبة ناشئة من صيغة اللغة الإعلامية، اي انها ذات مستوى واحد في النصوص الصحفية، ولكن التحليل الشـــكلي مطلوب في كل النصوص، للوصول الى درجة مهمة من قبول المعنى.

الترابط الضميري في النصوص الثلاثة – النص الصحفي:

بدأ بالفعل المضارع وادخل الطرف الاخر في الكتابة، والضمائر في السطر الأول تتشكل على هذا النحو: نسمع (نحن)، من يقول (هو)، قرأت (انا)، حياتي (انا)، قال كويلو (اسم مشخص)، رددها شبان (اسم مشخص)، قال (هو) ، انه (هو)، قرأ (هو)، اكتشف (هو)، يبحث (هو)، داخله (هو)، اقل (انا)، يحلم تاجر (اسم مشخص)، يقابل (هو)، يقول (هو)، انه (هو)، حلم (هو)، منزله (هو)، غادره (هو). النص الصحفي اخرج جزءا من حكاية قديمة، ظهرت الضمائر فيه لتشكل بنية النص، وهي روابط داخلية لتكوين الجمل، وإيصال المعنى، ولان النص فيه ميزات قريبة من السرد، فأن العلاقات قائمة على ضمير الغائب، الذي وضح حضوره في النص، فالضمير وسع معنى النص واكمل دلالته، وعلى الرغم من انه يسمى الضمير الغائب نحويا، غير انه هنا مختلف في وظيفته عن النحو التقليدي، فالضمائر تشكل بنية هذا النحو الذي يسمى نحو النص، وما كانت إلا شاهدة وحاضرة على الرغم من انها ضمائر غيبة، والانتقال من التعيين الاسمي الى التعيين الضميري هو ميزة النصوص لإيجاد توافق دلالي، وكما لاحظنا فان الاسم المشخص كان نادرا إذا ما قيس بالضمير، ويكثر هذا في لغة الصحافة، ولاسيما في التحقيق والقصة الخبرية، لكنه لا يشكل بنية مهمة في نصوص أدبية، ويلاحظ ان وجود هذا العدد من الضمائر، سيؤثر في طبيعة المعنى الذي يراد إيصاله. النص الأدبي: وعلى نهج ما قدمناه في النص الصحفي القائم على أساس رصد الضمير يمكن بيان الضمير ودلالتة في هذا النص على الشكل الاتي:

لست (انا)، أهواك (انت)، لست(انا)، أهواك (انت)، يصبو الظريف (اسم مشخص)، لست (انا)، أهواك (انت)، (انا)، أهواك (انت)، (انت)، (انت)، (انت)، يطوف (هو). المقارنة بين النص الصحفي السابق والنص الأدبي ، فأن المهيمنة النصية هي ضمير المتكلم (انا)، ولم يأت ضمير الغيبة إلا مرة واحدة في النص، وهذا يعني ان الروابط في اللغة الأدبية هي ضمائر الرفع المنفصلة (انا وأنت)، سواء اكانت ضمائر الخطاب أم ضمائر المتكلم، وهذا يعني ان الدلالة يحددها الضمير في معناه العام، وهي تأكيد الذات وتأكيد الشخصية، او في معناه الخاص المستقى من النص، إظهار التمكن العاطفي والنفسي، وإبراز شكل الخطاب في إطار المعنى. لم يرد اسم واضح في النص سوى انا وأنت، وقد ترتبط هذه بطبيعة الحياة العربية، التي تميز بين الاسم الظاهر وضميره لاسيما في الأدب الوجداني، وتعمل على تقديم الضمير في هذا النوع من الأدب لإحراز منفعة اجتماعية وهي ستر المخاطب.

النص الحواري:

ظهر الاسم الظاهر (صاحب العربة)، الكلب (اسم مشخص)، يسحب (هو)، قال (هو)، تنح (انت)، (انت)، (انت)، (انت)، الكلب (اسم مشخص)، قال (هو)، دهاك (انت)، اتتحدث (انت). يلاحظ ان ضمير الرفع المنفصل هو المهيمن مع الاسم الظاهر، وهو ميزة من ميزات النصوص الأدبية، بينما ظهر ضمير الغائب في عدد اقل. الاسمية تصريح وضمير الفصل تصريح ايضا اما ضمير الغيبة فقد

وقع في الموقع نفسه ايضا فتساوى ضمير الحضور مع ضمير الغيبة، وقد نقل ضمير الغيبـــة من معناه الذي وضع فيه الى معناه الجديد المتســـــــاوق مع دلالة الضمائر الأخرى، لكن طغيان ضمير الفصل المنفصل والاسم المشخص قرب النص من الأدبية وأبعده عن لغة الصحافة .

تشكل الضمير في النصوص الثلاثة السابقة يمكن رسمه في الشكل الاتي:

تشكل الضمير في اللغة الأدبية

ضمير الفصل ← الاسم الصريح ← ضمير الغيبة

تشكل الضمير في اللغة الإعلامية

ضمير الفصل ← الاسم الصريح ← ضمير الغيبة

بما ان ضمير الغيبة هو المهيمن في النص الإعلامي السابق ،لاسيما في أنواع محددة ، فقد ظل الفصل بين اللغتين كبيرا، فضمير الفصل هو الذي منح النص الأدبي ادبـــيته ونجد ان النص الأول هو الذي حقق أقصى تقارب بين اللغتين الأدبية والإعلامية .لقد كان التحليل السابـــق في إطار اللســـانيات النصية فلم نعتن بأسلوب الجملة ولا بالمفردة او طبيعتها بل اعتنينا بعنصر مهم يشكل أساس النصوص ويرسم بنيتها الدلالية في إطار ما يمكن تسميته بتداولية النص.

خاتمة:

قام البحث على أساس نحسبه جديدا، هو ان الدراسة اللغوية الحـــديثة تقـــوم على النص وليس الجملة، اي ان البحث الحديث قد ابتعد عن الأسلوب بصفته قاعدة راسخة في التحليل والدراسة، وأصبح النص هو وحدة التحليل، وبما ان النصوص تتشكل من جمل وان الجمل هي التي تشـــكل بـــناءها، فأن صحة الجمل هي أساس لصحة النص، لكن العلاقات بين الجمل لا تقل أهمية عن صحة الجمل، فأذا كان مطلوبا من الجملة الصحة الاسلوبـــية والنحـــوية، فأن دلالية النص تتعدى ذلك الى إطار أكثر ســـعة، ووجدنا ان التداولية والالسنية بصفتهما من المفاهيم الحديثة, يمكن ان تقدما مقتربات جديدة عن علاقـــة اللغة بالمجتمع او علاقتها بالتواصل, فأهم صفات النص قدرته على إيجاد توافقات منطقية ولغوية تؤثر في الســـلوك، ان الوقـــوف عند النص لا الجملة هو من اهتمام فرع من فروع اللســـانيات انتبـــه إليه الدارسون، هو لسانيات النص القائمة على دراسة العناصر اللغوية وتحـــولاتها، من نظام هي موجودة فيه فعلا .الى نظام جديد، اي ان الاهتمام تركز في السياق، وما يتركه هذا الســـياق من اثر في تحقـــيق دلالية النص.

كانت دراستنا لاستعمال الضمير، محاولة لادراك قيمة العنصر في إطار تحـــولات النص، واذ تعمل لسانيات النص على الاهتمام بكل النصوص، فأن مجالها الأوسع هو قربـــها من اللغة الإعلامية،

فما عاد التحليل مقصورا على لغة الأدب والميزات المعروفة اللصيقة بـــها، بـــل تعدى ذلك الى أنواع الكتابة الأخرى، فكل الكتابات تسعى الى التقرب من الفاهم، لإيصال المعنى والدلالة إليه، وكان البحث في كل فقراته يسعى الى التقريب بين نوعين من أنواع الاستعمال الواسع للغة هما: اللغة الأدبية واللغة الإعلامية، إذ ان الانفصال بينهما مهدد لحضارة المجتمع، والتقريب بـــينهما ترصين للســـلوك الفردي والجمعي، وهذا المقترب لا يمكن الوصول إليه إلا بعد إدخال الاتجاهات اللســـانية والتداولية في صلب البحث المعاصر، بلا خشية من اثر الحداثة اللغوية وانعكاساتها في الواقع.

الهوامش

1- سعيد يقطين وفيصل دراج. آفاق نقد عربي معاصر – دمشق نادي الفكر – ط1، 2003 ص210.
2- نورمان فاركلوف. تحليل الخطاب – المنظمة العربية للترجمة – بيروت 2009، ص398.
3- سعيد يقطين. سابق ص224.
4- سعيد يقطين. سابق ص225.
5- حافيظ إسماعيل علوي، نحن واللسانيات، بحث في اشكالات التلقي، ص83.
6- سعيد يقطين. سابق ص226.
7- محمد رضا مبارك. مجلة الاداب 2008، العدد 85.
8- محمد رضا مبارك. سابق.
9- حافيظ إسماعيل علوي. سابق ص114، ينظر علي او مليل، في التراث والتجاوز. بيروت (المركز الثقافي العربي) 1990، ص15.
10- احمد مختار عمر. علم الدلالة، عالم الكتب – القاهرة، ص11.
11- حافيظ إسماعيل. سابق ص99.
12- إبراهيم محمد محمود. المصطلح النقدي – دار الشؤون الثقافية العامة 2009، ص111.
13- فيلي ساندرس. نحو نظرية اسلوبية لسانية، ترجمة خالد محمود جمعة – دار الفكر، الطبعة الأولى 2003، ص124.
14- فيلي ساندرس. سابق ص133.
15- المصدر السابق ص161.
16- صافية زفنكي. المناهج المصطلحية، مشكلاتها التطبيقية ونهج معالجتها، المؤسسة السورية العامة للكتاب – ط1 دمشق 2003، ص39.
17- صافية زفنكي. سابق ص39.
18- فيلي ساندرس. سابق ص147.
19- نسيم الخوري. الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ط1 2005، ص372.
20- نسيم الخوري. سابق ص321.
21- فيلي ساندرس. سابق ص144.
22- فيلي ساندرس. سابق ص147.
23- احمد درويش. دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث. القاهرة ص108.
24- محمود خليل وآخرون. إنتاج اللغة الإعلامية. القاهرة، ص45.
25- زتسيسلاف واورزنياك. مدخل الى علم النص، مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري – مؤسسة المختار – القاهرة – ط1 2003، ص74.
26- السابق. ص74.
27- السابق. ص75.
28- النص الشعري لعباس محمود العقاد.
29- مجلة عمان. العدد 135، 2008، ص33.
30- زتسيسلاف واورزنياك. سابق ص76.
31- السابق. ص74.
32- السابق. ص78.
33- السابق. ص80.